دراسات الأدب المعاصر، السنة الرابعة، خريف ١٣٩١، العدد الخامس عشر، صص ٩٧-١١٤

القومية فی أشعار محمد الفيتوری

ليلا قاسمی حاجی‌آبادی *
پرويز لكزائيان فكور **

الملخص

الفيتوری شاعر كبير من إفريقيا دخل آفاقا لم يسبقه إليها شاعر منشدا الثورة ممجدا روح إفريقيا و البطولات العربية. فهو أنشد قصائد فی لبنان، فلسطين، والعراق يدعو الشعوب إلی الحرية و رفع الذل و الإستبعاد و يری فی المستقبل أن ينهض الشرق من غفلتهم ليسمع فی كل مكان نداء الحرية و الإستقلال و يريد منهم أن يتحرروا من الاستعمار الذی آلمهم و أحزنوهم بما أنهم أحياء يستحقون الحياة الحرة؛ فعليهم أن يبذلوا دماءهم فی سبيل حرية وطنهم . *فالفيتوری* رافض لهذا الواقع العربی المتردی و لكن رفضه ليس ذلک الرفض الهدام الذی يريد أن يهدم كل شی"دون أن يبنی شيئا"، إن رفضه رفض بناء يبغی من ورائه النهوض بالأمة العربية و دفعها نحو الرقی و الحضارة و يبقی و هو يحمل هم الشعر و هم أمته العربية. يستخدم الشاعرلغة الرمز و الكناية فی قومياته كما أن مسحة من الألم و التشاؤم سيطر عليها، و يشير إلی عدة القضايا السياسية الهامة خلال قومياته.

الكلمات الدليلية: الفيتوری، الشعر، إفريقيا، القومية، الرمز، الإستعمار، الحرية.

---

* عضو هيئة التدريس فی قسم اللغة العربية و آدابها، جامعة آزاد الإسلامية گرمسار(استاذة مساعدة).
leila03ghasemi@yahoo.com
** ماجستير فی الأدب المقارن، جامعة آزاد الاسلامية فی جيرفت.
الكاتبة المسؤولة: ليلا قاسمی حاجی آبادی

تاريخ القبول: ٩٠/١٠/٥ تاريخ الوصول: ٩١/٤/٢٠

المقدمة

يرتبط إسم *الفيتورى* بالإتجاهات السياسية فى القرن العشرين فنجد فى أفكاره خطاً مستمراً من التطور فى الأفكار و العلاقات السياسية؛ و قد إستطاع أن يدفع بالموقف السياسى إلى قلب الشعر. إنه حمل لواء الحرية و خاض المعارک الوطنية إلى جانب الشعب ضد الحكام، و ضد القمع و الإضطهاد و الظلم و التجويع و الطغيان و كان يعرف كيف جعل شعره يتوهج و ينير السبل أمام جماهيرالشعب. و لم تتخل القصائد السياسية الكثيرة التى نظمها عن الروح الحماسية العربية و الإندفاع و العاطفة الجياشة و قد أفزعه أن يرى الناس ما يعانون و يرى الحكام يعبثون و يصولون و لا رقيب و لا رادع.

لقد مثل *الفيتورى* بقصائده جزءً مهماً من حياة الشعب الإفريقى و الشعوب العربية، و هو تصوير حى لأحاسيس الشعب العربى و التعبير عن آرائهم و تطلعاتهم نحو المستقبل؛ و إن اشعاره تنزل على ظهر الحاكم الظالم كالسوط اللاهب يشبه شعر *فكتور هوغو* فى دفاعه عن الحرية و تنديده بالطغيان و الطغاة. أشعار *الفيتورى* مدرسة للدفاع عن الحرية و سيادة الانسان و تحرر كل البلاد من رحبس الإستعمار و الصهيونية و الفساد و العدوان (عراقى، ۱۹۹۵م :۱۶۸).

فهو فى الواقع كان إبن هذا العصر العربى، و كانت روحه مليئة بحب الامة و عطر تاريخها المجيد و تطلع إلى النهضة و تمثل الماضى؛ حينما نقرأ قصائده ندرک كم كان يبكى كالملايين الأخرى المفجوعة بموت البطل و تراه يصرخ من فوق مآذن القاهرة و مكة و القدس و المدينة و مآذن الرباط و بغداد و كل المدن و الدساكر لعل صوته المحفز يصل الجموع لتسمع بكاءه و نحيبه و أمله فى أن ينهض المتدثرون بالخيبة و الخذلان و الهزيمة أن يمشوا إلى البلدان المظلومة كفلسطين، فلسطين التى هى الجرح و الأمل، التاريخ الموجود و الدم المسفوک(نفس المصدر ،۱۹۹۵م: ۱۷۶).

حياته

ولد *الفيتورى* فى منطقة صحراوية عند حدود التيشاد من قرية غرب السودان إسمها "الجنينة" و هى قرية فى منطقة خضراء مطلة على النيل، مليئة بالأشجار و الأدغال و تكثر فيها الفاكهة و أشجار النخيل و النباتات الجنوبية الإستوائية الأخرى.

کان میلاده فی سنة ۱۹۲۹م من أب لیبی الأصل هاجر سنة ۱۹۱۷م إلی السودان، فکانت العشائرالإفریقیة ساکنة بهذه المنطقة، و من أم مصریة. دخل المدرسة فی وقت متأخرعن سنه الطبیعیة و إنتقل من المدارس الأزهریة إلی المدارس العصریة و هو مشرف علی الثلاثین من عمره(سعید محمدیة، ۲۰۰۸م:۲۱).

لم یسعد والد *الفیتوری* کثیراً فی غرب السودان فحمل عصا الترحال مثل آبائه و أجداده من قبل، و ذهب إلی الإسکندریة التی رأی له فیها موقعاً و لم یکن بعد قد أنجب من ذریته إلا *الفیتوری* فقط و شقیقه.

کانت الإسکندریة آنذاک موزعة بین عناصر متعددة؛ فیها العربی المسلم أو القبطی المسیحی و فیها المهاجرون الشوام أو النوبیون من أعالی مصر؛ هذا عدا الایطالیین و الیونانیین و بعض البلجیکیین و السویسریین و بقایا الأتراک و الشرکسی و کان العنصر الأجنبی مع العنصر القبطی یمسک بخیوط الحیاة العصریة الإقتصادیة و التجاریة فهؤلاء کانو یملکون المدارس و المطاعم و الفنادق و الأبنیة الفخمة.

و هکذا کانت الإسکندریة مجتمع الفوارق و الطبقات. دخل *الفیتوری* هذا المجتمع المتناقض المختلف بعضه عن بعض لیری نفسه و قد أطل علی التفتح و التحسن أنه لیس مقبولاً قبولاً حسناً لا هو و لا من قاربه اللون من النوبیین الذین لم یعملوا إلا کخدم فی البیوت والفنادق أو فی أحسن الأحوال طباخین. و عندما ذهب إلی المدرسة أدرک بالعقل و المشاهدة أنه هو و عائلته المهاجرة أصلاً من لیبیا فی موقع غیر محمود بالنسبة لهذه الترکیبة السکانیة الملونة المیول و الجنسیات.

فهو فی طفولته رأی هذا التناقض الحاد بین الخضرة و القحل و بین الإرتواء و العطش و بین العرقین الأسود و الأبیض و هذا الأمر ولّد عنده شعوراً واضحاً بالمفارقة و الإختلاف عن أهل الإسکندریة و قاده إلی الإحساس بالدونیة. عاش *الفیتوری* هناک أثناء الحرب العالمیة الثانیة ثم إنتقل بعد نهایة هذه الحرب إلی القاهرة و قبل أن یهیئ نفسه لدخول الأزهر أتم حفظ القرآن الکریم کلّه عن ظهرالقلب و درس فی الأزهر و إنتظم إلی زمرة الشعراء مقلداً القدماء و هو متأثر بالصوفیة و جوّها المألوف فی السودان و خاصة أن والده کان من رجالها(المصدرالسابق، ۲۰۰۸م: ۳۸).

تعدّ الوحدة و الإنفراد و الغربة الطابع الذی طبع حياة الشاعر كما ظهر أثره فی شعره. فكان يقرأ سيرة *عنترة* الشاعر الأسود و سيرة *أبی زيد الهلالی* ثم قصة «سيف بن ذی‌يزن» و «فيروز شاه» و «ألف ليلة و ليلة»؛ فهو متأثر بقراءته لهذه السير الشعبية و القصص الخيالية و أعجب بعمالقة الشعر العربی القديم من الجاهليين و الأمويين و العباسين و خاصة *الشريف الرضی* و *مهيار* و *إبن الرومی* و *أبی تمام* و *المتنبی* و *المعری*(خليل جحا، ۲۰۰۳م: ۴۴۶).

هكذا بدأ يكتشف ذاته و واقعه و يعرف سرّ المأساة التی ولدت معه و هی أنه قصير و أسود و دميم فينظمه فی ذلک واصفاً نفسه:

فقيرٌ أجل ... و دميمٌ دميمٌ
بلون الشتاء ... بلون الغيوم
يسير فتسخر منه الوجوه
و تسخر حتی وجوه الهموم
فيحملُ آلامَه فی جمود
و يحزن أحزانَه فی وجوم

(الاعمال الشعرية:۱۶)

هذا هو الشاعر الذی أخذت شاعريته تتفتح علی واقع ذاته فإذا هو قامة لصقت بالتراب و لكن روحه تهزأ بالقمم. فأثار يثور علی هذا الواقع:

و قامتُه لصقَت بالتراب
وإن هزئت روحُه بالقمم

(نفس المصدر:۱۷)

و مع هذا فإننا نجد *الفيتوری* بأنه يفاخر بزنجيته و لا يجد أی حرج فی لون بشرته، فهو إنسان و هذا هو المهم. هذا ما جعل *محمود أمين* يقول فی مقدمة ديوانه: «و من لون بشرته و من إحساسه العميق بالمرارة و الحقد صاغ له وطناً بعيداً نائياً هو إفريقيا؛ فيقول:

قُلها لا تجبُن .... لا تجبُن
قُلها فی وجهِ البشرية
أنا زنجیٌّ

و أبی زنجیٌّ
و أمی زنجیّة
أنا أسود
أسود لکنّی حرٌّ أمتلکُ الحریة
أرضی إفریقیة
عاشت أرضی
عاشت إفریقیة»

(دیوان أغانی إفریقیا: ۱۴۰)

فالمجتمع الذی یواجه *الفیتوری* هو المجتمع الأشقر الأبیض الغنی المتکبر العالی، و هو الأسود الداکن السواد الضعیف البنیة، الناحل القد، القصیر القامة، و الذی بات یحمل إحساساً بالغضاضة و لکنه کان أحالم الذی یحس بأن ینبغی أن ینهض و یستقیم و یرفع رأسه فی دروب الحیاة، و بدأ ینظر ماذا یضیع و کیف ینهض و أدرک أنه لا یوجد أمامه إلا الکتاب و المدرسة و بدأ العمل علی ذلک.

فکان یقرأ الشعر و یعود الی کتب اللغة و الروایات و الملاحم العربیة و کما ذکرنا کان أقرب هؤلاء إلی روحه *عنترة بن شداد* الشاعر الأسود شبیهه باللون و بدأ لسان *الفیتوری* یلهج بالشعر و بدأ عقله یقترب من القصائد و النظم و القوافی.

مذهبه

ما وجدت شیئاً فی الکتب المختلفة یشیر إلی مذهب *الفیتوری*، و لکننی رأیت قصیدة فی دیوان الشاعر یبدو من خلالها إعجابه *بالإمام علی(ع)* و مودته له؛ فنکتفی الإشارة الی بضعة أبیات من هذه القصیدة بعنوان «مقدمة الزیارة» التی قالها فی نجف الأشرف عند قبر *الإمام علی(ع)*:

وقفتُ یا سیدی
یا قوسَ دائرة من النبوات
و قد أراک و أدری أن تدرکَ فی
معارج السرِّ سر بالجلال حفی

يا نفسى لا تخفى
هذا عراقُ أميرِالمؤمنين
و هذى الأرضُ أرض علىٍّ ساكنِ النجف
هذا العراقُ و كم من غاصبٍ
كبُرت أحلامُه ثم لم يحصُد سوى التلفِ
هذا عراقُ العراقيين
عزتُهُم فى النفسِ لا فى حقولِ النفطِ و الترف

(نفس المصدر: ٢٨٩)

آثاره

للفيتورى آثار كثيرة تركها طوال حياتها المثمرة و قد طبع بعضها مراراً. فأهم آثاره:

١.أغانى إفريقيا (١٩٥٥م)
٢.عاشق من إفريقيا (١٩٤٦م)
٣.أذكرينى يا إفريقيا (١٩٦٦م)
٤.مسرحية«سولارا» (١٩٦٩م)
٥.سقوط دبشليم (١٩٦٨م)
٦.معزوفة لدرويش متجول (١٩٦٩م)
٧.البطل و الثورة و المشنقة (١٩٧٢م)
٨.ثورة عمر المختار (١٩٧٤م)
٩.إبتسمى حتى تمرَّ الخيلُ (١٩٧٢م)
١٠.يأتى العاشقون إليک (١٩٨٩م)
١١.موت الليل ...موت النهار (١٩٩٤م)
١٢.أحزان إفريقيا (١٩٦٦م)

شعره

الفيتورى هو فى مقدمة شعراء المدرسة الواقعية من حيث القدرة و الصناعة، و من حيث دقة الشعر و إنتظام الصورة. بإستطاعتنا أن نوزع شعر *الفيتورى* إلى روافد و لا شک فى أن إفريقيا هى الرافد الأول فى شعره؛ إفريقيا المتوحشة السوداء بغاباتها و شمسها المحرقه و حيواناتها و سكانها الزنوج الحفاة العراة. فنظم فيها أربعة دواوين؛ فبعد ديوانه الأول أى «أغانى إفريقيا» يأتى «أذكرينى يا إفريقيا» ثم «عاشق من إفريقيا» و أخيراً مسرحيته الشعرية«أحزان إفريقيا» التى تدور حول سرقة البشر و بيعهم كعبيد فى أمريكا، و هو يريد من إفريقيا أن تستيقظ و أن تحطم القيود و تتحرر؛ أما الرافد الثانى فى شعر *الفيتورى* فهو رافد الصوفية و يظهر ذلک فى ديوانه «معزوفة لدرويش متجول» و قد نظم قسماً كبيراً من هذا الديوان فى لبنان؛ فهو يصوّر لنا لحظات الوجد الصوفى فى مراحل التأمل فى الواقع العربى و الإنسانى.

و الرافد الثالث فى أشعار *الفيتورى* الإهتمام بالحرية؛ حرية الانسان من رقّ العبودية، حرية الانسان من أيادى المستعمرين و الدفاع عن المظلومين. فهو يقف إلى جانب الشعوب المقهورة و المستغلة يستحثها للثورة و التحرر(خليل جحا، ٢٠٠٣م: ۴۵۰).

خصائص شعر الفيتورى

أ.الطابع العاطفى لا سيما فى الحنين إلى الوطن بأنغام حزينة.

ب.الطابع الصوفى الذى يتجلى فى عشقه بالطبيعة و وصف مظاهرها الخلابة، كما أنه يستمد من الطبيعة فى أشعاره السياسية.

ج.الطابع القومى الذى يتجلى فى وصف الشعوب و البلدان المختلفة.

د.النزعة الإنسانية؛ فهو بصفة شاعر ملتزم يطمح إلى الاخلاق الإنسانية الرفيعة و نجاة نوع الإنسان.

هـ .الأغراض الشعرية المختلفة كالحرية، الحنين إلى الوطن، و القومية.

و.التشاؤم فى أشعاره لا سيما فى وطنياته فيرى وطنه بأسره مليئاً بالظلم و الجور.

الإلتزام فی أشعار الفیتوری

یعتبر *الفیتوری* من الشعراء الملتزمین و الذی جعل الشعر وسیلة للدفاع عن إنسانیة الإنسان و حفظ الکرامات الإنسانیة و الکفاح مع الرق و العبودیة بید جبابرة العصر. فالشعر هو سلاحه فی مجابهة الإستعمار الذی عذّبه و إسترقه طول الدهر. فلنسمع معاً إلی الأبیات التالیة:

یا خالقَ الإنسانِ من طینه
و خالقَ الفنّانِ من طینه
عذّبتَنی بالفن
عذّبتنی بهذه النار السماویة
أدعوک لا تشقّ بها کائناً بعدی
فهذه النار من قسمتی
رضیتُ أن أفنی علی وهجها
لکی یعیش الفنّ فی مهجتی

(أغانی إفریقیا: ۱۳۰)

«فأغانی إفریقیا» الذی أصدره عام ۱۹۵۵م لقی صدیً طیباً فی العواصم العربیة، و رحّب به نقاد کثر و وجدوا فیه صوتاً أصیلاً طالعاً من ذاکرة العذاب و حمل هذا الدیوان دعوته الجریئة إلی رفض الظلم التاریخی و العنصری و السیاسی.

فالفیتوری شاعر ملتزم فی المعنی الإنسانی للالتزام و لیس فی معناه السیاسی أو الواقعی الضیق صوت مجروح لم یشفه سوی البحث عن الجمال(سعید محمدیة،۲۰۰۸م:۱۵۵)

و کما أن هذه النزعة أی الالتزام جلیة فی أشعاره نجد النزعة الإنسانیة فیها بارزه، فهو صدیق الأطفال و التعساء و المحرومین و حادیاً للثوار و الأطهار و الأبرار فکان متعمقاً بالإلتزامات الروحیة و الأخلاقیة و القصیدة کانت تنبع من روحه فلهذا ملیئة بالحرقة و اللوعة. فهو یمیل فی القصیدة للتأمل و یغور فی قلب المجتمع و یأخذ دور ناسک حکیم یخاطب الروح و یستبطن العقل فی فذلکة فلسفیة. نکاد نسمعه و هو یصرخ بصوته و

يصرخ بقلمه تعبيراً عما يحس؛ ليس هناك شعر حقيقي دون توظيف إجتماعي أو سياسي.

فلنقرأ في سيرته و شعره أحزانها الكثيرة و أشجانها المتصلة للإنسان، فهو في إشراقاته و تأملاته و لحظات صفائه في حال عودته إلى ينابيعه الروحية الأولى. حالات النقاء و الرفعة و السمو و صمود القلب من دنس الحياة اليومية و عبثها و عبوديتها. نرى صورة *الفيتوري* الفكرية في جلالها بهائا نهضوياً شريفاً و مفكّراً ملتزماً و سياسياً يسلك طريق النبل و الإستقامة و حكيماً مرسلاً الحكمة في القريض أو الخطابة في المقالات أو في البوح حديثاً عن نفسه، أو عن الآخر عن الدنيا و ما فيها و عن الإنسان و ماهيته و عن الأوطان الصغيرة و الأوطان الكبيرة عن تاريخ الأحزان أو تاريخ الأفراح(المصدر السابق ٢٠٠٨م:١٥٩). *فالفيتوري* وضع شعره في خدمة الأهداف التي تضمن المصالح السياسية للوطن و الأمة و بصورة عامة في خدمة الإنسانية.

القومية في اشعار الفيتوري

قصة ظلم المستعمرين و نهب أموال الشعوب تؤلم كل إنسان و *الفيتوري* كان يشاهد أثر أسواط الإستعمار على أكتاف الناس؛ فهو شاعر أحس مشاكل إفريقيا و مشاكل العرب معاً و في النهاية صوّر مشكلة الإنسان المؤلم في كل العالم فهو لا يتعلق بالإفريقيا أو بالشعوب العربية بل يتعلق بالإنسانية بكل الشرق، فيخاطب كل الشرقيين الذين يعتبرون أخاه:

يا أخي في الشرق في كلِّ سَكَن يا أخي في الأرض في كلّ وطن
أنا أدعوك فهل تعرفُني يا أخاً أعرفه رغم المِحَن

فالفيتوري متمرّد على الفقر و الجوع في العالم، عنيد أمام طاغوت الحكام و سيطرتهم، شامخ في وجه محاولاتهم؛ فحاول أن يستخدم الشعر لغايات و الأهداف الإنسانية الإجتماعية هي إغاثة المظلومين و تحريرهم و نشر العلم و توحيد الأمم. و السياسة لديه سياسة وطنية و قومية يهدف بها إستقلال وطنه و كل البلدان العرب.

قومية *الفيتورى* هى إحساسه العربى الخالص فلا يتعلق بأمة هى هوى أو عصبية و ستبقى أشعاره منارة مضيئة أبد الدهر لكل الجماهير المكتوية بنار القمع و الإرهاب من أجل غدٍ أفضل و حياة حرة كريمة.

ففى الصفحات السابقة أشرنا إلى ثلاثة الروافد الشعرية عند *الفيتورى* فأما الرافد الرابع فى شعره هو رافد العروبة. فاذا كان *الفيتورى* قد بدأ ينظم الشعر فى إفريقيا و الدفاع عن قضاياها و الذود عن مصالح شعر بها فإنه لا يتنكر لواقعه و قوميته العربية. فهو عربى أولاً و إفريقى ثانياً؛ فلا عجب أن نجد فى شعره التيار العربى و القومى فلابد أن يتأثر بواقع أمته العربية و الدفاع عن قضاياها و قد صدمته الهزيمة التى نزلت بها سنة ۱۹۲۷م، فاكتشف أن الطغيان المسلط على رقاب العرب من الداخل و الخارج أشد وقعاً و أكثر إيلاماً من الظلم التاريخى المحيق بإفريقيا و بالإفريقيين، أو إن الإستعمار و النضال ضده حلقات أخذ بعضها ببعض على إمتداد التاريخ و الواقع الجغرافى.

فأخذت الرؤيا القومية تتكثف فى شعره و هى أجلى ما تكون فى مجموعاته الشعرية «البطل و الثورة و المشنقة» التى يهديها إلى روح المناضل *جمال عبدالناصر* و «إبتسمى حتى تمرّ الخيل». يضاف إلى ذلک كله مسرحيته الشعرية «عمر المختار» البطل الليبى و هى فى ثلاثة فصول و فيها يظهر أن *عمر المختار* كان زعيم الثورة الوطنية ضد الطغيان الإيطالى الفاشستى إلا أن البطل الحقيقى هو الشعب نفسه(خليل جحا، ۲۰۰۳م:۴۵۳).

لبنان

يعد *الفيتورى* من أهم شعراء الأمة العربيه و لم تتوقف فاعليته و دوره و تأثيره الشعرى على وطنه، بل تجاوزه إلى رحاب الإنسانية. فهو من شعراء بلا حدود و يشغل باله كل حوادث العالم العربى.

فالقصيدة التالية تمثل التمرد أمام طاغوت الحكام و سيطرتهم، فيبدى الشاعر سخطه من تجزئة لبنان و من أن يصبح لبنان كألعوبة بأيادى الحكام:

هناک لبنانُ و الأرض التى غضبت لوقع أقدام من خانوکَ يا جبلُ
هناک إرثَک فى الأرواح حيثُ سَرَ ت الأرواح مَن مَلَکوا الدنيا و من شغلوا

و يقول فى قسم آخر من القصيدة:

صرختُ و الدمُ فی راحات مَـن شـربوا | و لحـمُ لبنـانَ فـی أشـداق مَـن أكلـوا
لمـن إذن نصـب المـوتی سـواعدَهُم | فـوقَ الحجـیم و شـبوا فیـه و اكتحلـوا
و فـیم أطلـق طفـلٌ حسـبتَه قمـرا | مـن القـذائف و التـاریخُ منـذهلٌ
و غـاص فـی وطـن كـالحلم تحرسـه | عدالـة الله فـوقَ الأرض و المثـل
لبنـان لا لـیس لبنـان الـذی صـنعوا | بـالأمس او قسـموه الیـومَ و احتَفَلـوا
لا لیس لبنانُ تلک الملصقاتِ علی الـ | ـحیطان تنـزو جراحـات و تنـدملُ
و لیس لبنان هذا اللیلَ یغسـل عینیـ | ـه بـذبح ضـحایاه و یكتحـل

(الاعمال الكاملة:۶۶)

فهو یخاطب جبل‌عامل بلبنان و یقول: الخائنون غصبوا أرضک و قسموا لبنان، هم كانوا یشربون دماء القتلی و یمضغون لحم لبنان ثم یأتی بصرخة یثیر الحمیة: لماذا استشهد الأبطال و احترقوا فی نار الحرب و لماذا جعل الاطفال صدورهم مرمی القذائف؟ فأرسل الشاعر صیحاته تدوی بین اللبنانیین فهو یری بأن أیادی الظالمین لطخت بدم الشعب اللبنانی، و لكن أرض لبنان لیست ألعوبة للحكام الجائرین بل هی أحلام مقدسة تبقی فی الأذهان.

و یقول فی قصیدة «القنّاص یعترف للفریسة»:

بیروتُ تشهق بالقذائف والقنابل
بیروتُ تحلمُ بالخرائب و الزلازل
فهناک مجلود و جلّاد
و مقتولٌ و قاتلٌ
و بنادقُ خانَت
و أخری عن مواقعها تُقاتِل

و یمدح *الفیتوری* فی قصائد كثیرة مقاومة اللبنانیین أمام الیهود. فأنشد إحدی قصائده علی أسلوب *محمود درویش*:

أنا محمد بطرس العربی من لبنان
حسبُک لا تزِد حرفاً
و أعملُ بائعاً للیانصیب أبیع أوراق الحظوظ

لمن يشاء و ربّما تعب القليل و لم أجد إلا القليل
و أنت؟
نجّار قديم كان لى بالأمس حانوتٌ و ضاع
وأنت يا صيدا الوداع
هناک بيروت التى يحكون عنها
سأعود يا صيدا إليک
و أنت ما اسمک؟
كنت امتهن الحدادة ليس لى وطن
سوى لبنان
و اسمى منذ سمّانى أبى غسّان
لم أک حاضراً إذ ذاک
لا تقلَق فلن تحتاجَ بعدَ اليوم
لإسم أو هويّة
هل تريد هويتى؟
لا فرقَ يا غسان
سوف تموتُ مجهولَ الهوية

(نفس المصدر:۱۱۲-۱۱۳)

و يقول فى الأخطل ليمجّد لبنان و ليذكر فلسطين:
أنت فى لبنان
و الخلد هنا
و الرجال العبقريون أقاموا
حملوا الكون على أكتافهم
و أحلى أغانيهم على الأرض السلام
أنت فى لبنان
و الجرحُ كما كان يا لبنان
و النارُ ضرام

و الفلسطینُ التی کانت لَنا
سورةٌ تُتلی و قدّاساً یُقام
و شیوخاً تذکرُ اللهَ
فملءُ المحاریبِ صلاةٌ و صیام
والنبیین صَفَت أرواحُهُم
فلیالیهم سجودٌ و قیام
کان بیتُ اللهِ قُدسیاً بهم
قبلَ أن یأتی علی القدسِ الظلامُ

فأرض لبنان و فلسطین مقدسة و القدس هی القبلة الأولی للمسلمین، و کان محلاً للسجود و الصلاة و الصیام و هما الآن اغتصبتا و لا تجد من یحرّرهما من ید الجبابرة.

فلسطین

قضیة فلسطین هی القضیة التی أثرت علی شعراء کثیرین دون النظر إلی الأواصر السیاسیة و العقائدیة. فبعد أن بدأ الإستعمار الغربی بتهوید فلسطین قام الشعراء بتحذیر القادة ممّا سیحلّ بفلسطین التی تعتبر رمزاً لمجدهم و حضارتهم الضائعة و تمرّ السنون و تبقی قضیة فلسطین هی القضیة الأولی للأمةالعربیة.

قام الشعراء و الأدباء بردّ الفعل تجاه هذه القضیة قبل أن یهتم الجهات المعنیة إلی الوقائع السیاسیة الفلسطینیة و *الفیتوری* إهتم إلی هذا الجانب فی أشعاره و إختص قسماً کبیراً من أشعاره بهذه القضیة بما أنه فی قمة الرأی الحر و الدفاع عنه، فی قمة الکفاح من أجل تحریر الرأی العام من أباطیل الحکام الملتزمین بأوامر ساسة الإستعمار و صنائعهم.

ففی قصیدة «مقاطع فلسطینیة» یحثّ الهمم للثأر و یهاجم الخونة الذین باعوا فلسطین و یدعو إلی الوحدة و یری بأنّ الإحتلال جثم طویلاً علی صدور الشعب الفلسطینی و یجب أن ینفک قیوده، فهو یعتبر عید الفلسطین الیوم الذی صودق علی معاهدة غصب فلسطین و یری بأن القدس هو رمز البطولة و المجد و القداسة:

عیدُ السیادة ... ذکری إغتصاب فلسطین
عیدُ فلسطینَ... ذکری المعاهدةِ البربریة

عيدُ الصعود ... و عيد الهبوط
و كأس نبيذٍ لمجد يهوذا
و كأسان فى صحة المجدليةِ
و خارطة الدولة العربية
ممزّقة فى بقايا حطام
قوائمُه النُظُم العنترية
فهاتيک رايتها الجاهلية
و تلک عباءتها هاشمية
و يا قدسُ منّى عليک السلامُ

و هو يختصر موقفه من القضية الفلسطينية بهذا البيت من الشعر «إن جـرح فلسـطين ليس تضمده الكلمات». فمن ميزات هذه القصيدة أنها عميقة المعانى، دقيقة الوصف، قوية البناء. و فى قصيدة أخرى يقول:

لِيبق كلُ بطلٍ مكانَه
و لتصعق الخيانةُ
فالشعبُ سوف يغسلُ الإهانة
دوى نفير الثأر
يا جراح عشرين سنة
نجمة اسرائيل فوق المأذنة
فمن أذّن يا وطنى
ينهض للصلاة
بينما حوافرُ اليهود
تدوس سقفَ المسجدِ الأقصى
وتسجن إسم الله
و تركل القداس
بخٍ بخٍ أيتها العروس
فى جلوتها مخضوبة اليدين بالحناء

بخ بخ یا شهداء
شوارعُ القدس الإلهیة
تصفرُ فی أرجائها الرمادیة
و تستحم الأرض بالرماد
حیث مشی الأنبیاءُ

(الأعمال الشعریة الکاملة: ۱۸۲)

فنحن نجد *الفیتوری* یدافع عن حریة الانسان و حق الشعب الفلسطینی فی العیش الحر الکریم، فإنه یستلهم شعره من إنتفاضة الشعوب المقهورة، الشعوب المستضعفة و لا ینسی فلسطین و مأساتها.

و تبدو قومیته العربیة فی مقابلة أجرتها مع مجلة «الشعر» التونسیة حیث یقول: «ثم رأیتنی و قد أخرجت رأسی من تلک الشرنقة، ألمح وجهاً آخر للعالم من حولی و هو وجه واقعی العربی الذی أنا جزء منه. إن مجتمعی العربی یحاول أن یتخلص من أغلاله التاریخیة، العدوان الثلاثی علی مصر، الثورات المتلاحقة، الإنتفاضات الکثیرة، دوی أصوات الحیاة من حولی أن فکراً جدیداً یولد فی ذاتی، و أنا أحاول التعبیر عنده.

فالفیتوری ناقم و ثائر لما أصاب أمته العربیة من ذلّ و هوان، و لما ألم بها من هزائم و ضعف و تشتت. یقول مقذعاً إیاها هازئاً و ساخراً منها:

قد سُقط القدسُ
و غاصَ حافرُ القاتلِ فی دمائنا المحرّمة
و سُقطَ البُراقُ و الوحیُ
فهل عرفتَ أو هل ستعرفین
متی ستعرفین یا مکةُ المکرمة؟!

بغداد

یعتبر الشاعر العراق وطنه و یحس بألم شدید عندما جزّأ الاستعمار ترابها و أسال الدم من جبهتها؛ ففی القصیدةالتالیة یتحدث عما یری فی العراق من ظلم و استبداد و العراق غارقة فی الدم و لا یزال یصطبغ بالدماء:

الأيادى التى غسلت جبهةَ الشرق بالدّم
حتى أفاق العراق
جزؤوه و استبيحَ الترابُ الذى كان من قبلُ فوقَ التراب
عزيز النطاق
يا بلادى التى حملتنى بعيداً إلى عرسها
يا بلادى العراق

و يباهى فى قصيدة «يأتى العاشقون إليک يا بغداد» ببغداد، و مجدها العريق و عروبة شعبها و يقول:

أقول أنا الذى لولا شموخُک أنت يا بغدادُ
لولا وجهُک العربى
لولا سيفک العربى
لولا شهادةُ من تضرّج بالشهادة
أو تكفن بالرمال
لولا صواريخُ الحسين برقن
لولا نخيلُ البصرة الصوفى عانَقَ أرضَه
لولا راية باسم العراق و مجدُه العربى
لم يتركوا لک ما تقول

(الأعمال الكاملة:۲۸۲)

فبغداد هى الكعبة التى يسجد أمامها المجوس:

يأتى الشعر و الشعراء
شاخصة نواظرُهم إلى بغداد
كعبتُنا التى سجدت على عتباتها
شمسُ الشموس

(الأعمال الكاملة:۲۹۵)

فيعطى الشاعر هالة من التقدس إلى بغداد و يعتبرها الكعبة التى تعبدها الناس و يضع يده على الهمم القومى المشترک الـذى يـربط بـين الشـعوب المناضـلة لأجـل الحريـة و الكرامة الوطنية.

النتيجة

يهتم *الفيتوری* لقضايا الإجتماعية و السياسية لكل البلدان العربية فهو مـواطن عـالمى كانت كل المدن له موطناً فهو لسان المناضلين أينما كانوا.

كان *الفيتوری* ذا نظرة عميقة للعالم العربى و كان يعـانى كبقيـة أقرانـه مـن اسـتثمار الشعوب المظلومة و يصوّر لنا أحاسيس الرجل الأسود الذى يدافع عن الحرية أينما كانـت؛ فيمكن لنا أن نلاحظ مشاكل حياة الأقوام العربية فى آسيا و الشرق الأوسط فى أشعاره.

و يبدو لنا أن قصيدة *الفيتوری* وثيقة الصلة بالواقع العربى و بالإنسان العربى و بالتـاريخ العربى و يصوّر بشعره الواقعى طموحات الإنسان العربى المعـذب و المسـلوب الإرادة و هـو بالتالى يستلهم التراث العربى فى شعره و القصيدة عنده تنتمى إيقاعاً و نغماً إلـى الإيقـاع العربى الإنسانى المعاصر المتداخل مع إيقاعات عصره، و هى ليست تكراراً أو صدىً لقصائد الشعراء الآخرين بل هو شاعر له شخصيته المميزة و طابعه الخاص و أسلوبه الـذى يتفـرّد به. له رؤياه السياسية و صوته الرافض و مناصرته لقضايا جماهير الشعب العربـى. لا يتعمـد الغموض و الابهام و لا يدّعى الحداثة الزائفة بل إنه يرى أن الشـعر لـيس هدفـه أن يصـور الأشياء أو ينقل الطبيعة بل عليه أن يكون أداة فضح و تحريض و ثورة و تحدٍّ.

فالتشاؤم و اليأس و فقدان الأمل قد غلب على أشعاره مـع أنـه يعتبـر يـأس الشـعوب مانعا"للوصول إلى الأهداف السامية؛ و إتسمت قومياته بالروح الحماسية العربية و العاطفـة الجياشة و تصاويره الشعرية تصاوير حية لأحاسيس الشعب العربى.

المصادر و المراجع

سعود البابطين، عبدالعزيز. ۱۹۹۵م. **معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين**. الطبعة الأولى. رياض: مؤسسة عبد العزيز.

سعيد محمدية، أحمد. ۲۰۰۸م. **محمد الفيتورى صفحات من سيرة مجهولة**. الطبعة الأولى. بيـروت: دارالعودة.

الفيتورى، محمد. ۱۹۹۸م. **الاعمال الكاملة**. مصر: مطبعة الهيئةالمصرية العامة للكتاب.

عراقى ،عاطف. ۱۹۹۵م. **العقـل و التنـوير فـى الفكـر العربـى المعاصـر**. الطبعـة الأولـى. بيـروت: المؤسسةالجامعية للدراسات و النشر و التوزيع.